الظمآن . . !

للأستاذ راجي الراعي

في ذلك المساء كنت عائداً إلى بيتي لأطرح على عتبته أعباء اليوم وأنا أمسح العرق الذي يتصبب به جبيني وألتقط حجارة البؤس وأرجم بها الدنيا ، فشمرت يد ناعمة تمتد إلي ونظرت فإذا بشبح في عينيه ألف شعاع ينتصب أمامي وبادرني قائلا : أنت من البائسين ولكن خفف عنك فالحياة التي تربعها تدعوك الليلة إلى جلسة شراب تقيمها لك ولأمثالك في القصر القائم على تلك الرابية التي تراها فاذهب واشرب وتمتع ، فسألته : ومن تكون أيها الشبح المشع ؟ فاجاب : أنا الرحمة ، وما هي إلا طرفة عين حتى حملة النسيم وتوارى عني فقلت لنفسي : هل لمثلي أن يتمتع بشيء في هذه الدنيا ؟ هي ولا شك هزلة جديدة فلأذهب إليها لأشهد فصولها وواصلت السير إلى حيث ألقيت بأحمالي على عتبة البيت ، وخرجت والليل يشتمل ، أهبط الوادي وأتسلق الجبل حتى بلغت القصر فإذا هو يموج بالخلائق يتدافعون بالمناكب ليستمعوا إلى الكلمات التي كانت تنيدها عليهم امرأة توسطت المكان ، طويلة القامة بديعة ، ورحت أشق الصفوف المتراصة حتى دنوت من تلك المرأة فسمعتها تقول : أنا الحياة — أعرف أنكم البائسون من أبنائي الذين طالما عبست في وجوههم وقد رأيت أن أجمعكم منذ اليوم مرة في العام لأعرض لكم أثمن ما لدي من الكؤوس وأسكب لكم منها فتبتل شفاهكم الجافة ببعض ما حرمتموه من دناني — أنا الحياة ، ولي كؤوس وأنفرها وأجلها وأعزها ثلاث ؛

ورفعت بيدها الكأس الأولى وقالت : هذه هي الكأس الصفراء كأس الثروة من شربها اتسع أمامه مدى العيش وأقام القصور الفاطحة السحاب واقتنى الأرض الفسيحة الرحاب ونال ما يشتهيه من الطيبات وتحدى الأقدار ، ورفل بالديباج والحرير وبسط الموائد المثقلة بما لذ وطاب من الطعام والشراب — ورمت الحضور بقبضة من الدنانير فهجموا يلتقطونها وصبت خمرة الثروة فشربوا جميعهم — أما أنا فلم أشرب —

ثم رفعت الكأس الثانية وقالت : هذه كأس الكؤوس ، كأس المرأة يحفها الحب والجمال ، من شربها فرشت له الجنات تجري من تحتها الأنهار وتدفقت عليه قبل الحسان وحملته أجنحة القلب إلى آفاق البهجة والنعيم وتنشق الرياحين وسجع له الحمام وانتقل بين الزهر والورد وذاق الشهد — وأطلقت في تلك القاعات فتاة غضة بضة سمراء الوجه دعجاء العينين رشيقة القد يفوح منها عبير الحسن وتشع عيناها بالإغراء والفتنة فتخاطفت وجنتيها وتنافست في ثغرها القبلات — وصبت الحياة خمرة المرأة فشرب الجميع — أما أنا فلم أشرب —

ورفعت الكأس الثالثة وقالت هذه هي الكأس الحمراء ، كأس المجد ، كأس الفاتحين الغزاة من شربها دقت له الطبول وخفقت في سمائه الرايات وسارت في ركابه الجيوش واكتسح البلدان وأخضع الشعوب وثمل بخمرة النصر ونصبت له التماثيل والعروش — ودارت على الناس يا كاليل من النار فزينوا بها رءوسهم ، وصبت خمرة المجد فشرب الجميع — أما أنا فلم أشرب —

كنا عشرة آلاف من بائسي (هيجو) يتمخض بنا القصر ، وكان الجميع من حولي يهللون للحياة ويترنحون بخمرها ويثنون على كرمها وحنانها إذ جادت عليهم وهم المحرومون بساعة من ساعات نعيمها .. وكانت الحياة تطرب لبنيها وهم يطربون ولكن ساءها أن لا أكون من دعائها المهللين وسكاراها الطروبين وراحت تسأل عني وقد جرحت كبرياءها وما لبثت أن أقبلت علي والعيون تحدق إلينا والقوم يتهامسون وسألتني : من أنت ؟ فأجبتها : أنا الظمأ .. الظمأ القاسح ، الظمأ كله ! فقالت : ولم لا تشرب من كؤوسي التي أدرتها على رفاقك ؟ فقلت : أنت تجهلين نفسك أو تتعرفينها ولكنك تخدعين فالكؤوس التي عرضتها وسكبت فيها

الموضوع وتحمله على السرعة . وموضوع المازني القصص وفنه الوصف . فلو أنه خلص لهذين البابين لأتى فيهما أعجب العجب .

* * *

هذه بعض صفات الصديق الراحل ذكرتها عجلة في مقام الحزن على فقده والجزع لمصابه . أما سائر صفاته وتحليل ملكاته وترجمة حياته فلها في تاريخ الأدب فصل طويل سأكتبه بعد قليل .

(المنصورة) جرجيس فزايات